عروس الفوسفوجيبس

قصة رمزية

الكاتب: مازن جراي

عروس الفوسفوجيبس

قصة رمزية

الكاتب: مازن جراي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كل أرض لها نفس.

حين يكون الهواء حرا، لا ننتبه إليه.

لكن حين ينتزع ببطء،

تبدأ الأمكنة بالكلام.

هذه حكاية جسد ظنوه صامتا ضعيفا،

لأنهم لم يسمعوا اختناقه.

حكاية عروس

لم تكسر،

بل طال انتظارها

لأن يتذكر أحد

أن الحياة

لا تقاس.

ملاحظات للقارئ

في حضرة هذا النص،

لا تقرأوا حكاية عروس فحسب،

ولا قصة أرض أرهقت.

استنطقوا الرمز الذي يتجاوز الشكل،

حيث تتقاطع العروس مع المكان،

ويصير الجسد امتدادا للأرض،

وتصير الأرض كائنا يحب ويتألم.

ما بين هذه الصفحات،

مرآة لصراع قديم،

صراع لا يعلن،

بين قداسة الحياة ومنطق المنفعة حين يجرد من الرحمة

هذه ليست حكاية مدينة واحدة،

بل قصة كل عروس جميلة قيل لها إن التضحية واجبة،

وإن الصمت فضيلة،

وإن الألم ثمن لا يرى.

القصة الرمزية: عروس الفوسفوجيبس

تمهيد: قصة عروس

يقولون إن لكل أرضٍ روحًا، وإن الأمكنة تتنفس وتحلم وتتألم مثل البشر. وهذه ليست حكاية مدينة من حجر ورمل، بل سيرة روحٍ اسمها "تكابس". هي عروس وُلدت عند ملتقى المستحيل، حيث يعانق البحر المتوسط الصحراء، وتنفجر الحياة خضراء من قلب العطش. كانت أغنيتها تُسمع في حفيف سعف النخيل، وعطرها يفوح من زهر الحناء، وضحكتها تتردد مع أمواج شط السلام الهادئة.

لكن الأرواح الجميلة، كالفتيات الفاتنات، كثيرا ما تقع أعين الطامعين عليهن. وهذه حكاية الصفقة التي عقدها والدها طمعًا في وعود الثراء والقوة، فسلّمها لزوجٍ غريبٍ لم تكن تعرف عنه سوى بريقه المصطنع وضجيجه الأجوف. زوجٌ حوّل أغنيتها إلى أنين، وعطرها إلى اختناق، وضحكتها إلى دموع مالحة كبحرها الجريح. هذه هي قصة تكابس... قصة العروس التي لم تمت، بل قررت أن تثور.

الفصل الأول: العروس في بهائها

كانت تكابس، قبل أن يعرف الدخان الأسود طريقه إلى سمائها الزرقاء، تستيقظ على همس الفجر. لم تكن الشمس تشرق عليها، بل كانت تتسلل خجولة بين سعف ثلاثمائة ألف نخلة باسقة، كأنها تستأذن قبل الدخول إلى مملكتها الخضراء. كانت تُعرف عن جدارة "بجنة الواحات"، فهي لم تكن مجرد واحة، بل معجزة فريدة ونادرة: الواحة البحرية الوحيدة في العالم التي يغسل فيها موج المتوسط المالح جذور النخيل الحلو، في عناق أسطوري بين الصحراء والبحر.

في الصباح، كان هواؤها مشبعًا بوعود الحياة. تمتزج رائحة اليود الصافية القادمة من خليجها السخي برائحة الطين الندي المنبعثة من "السواقي" التي تجري كالشرايين حاملة الماء العذب لكل نبتة. كانت الحياة هنا تُنسج على ثلاث طبقات، كقصيدة متناغمة خطّها فنان مبدع: في الأعلى، تفرض النخيلات هيبتها، مظلات طبيعية تحمي من قسوة الشمس. وفي الوسط، تتفجر ألوان الحياة من أشجار الفاكهة؛ حبات الرمان الحمراء تتدلى كقلوب ياقوتية تنبض بالحياة، إلى جانب التين والمشمش. أما في الأسفل، على الأرض الممتنة، فتفترش حقول النعناع والفلفل، وفوقها تتربع غابات "الحناء"، الذهب الأحمر الذي صبغ أفراح أجيال ورسم على أيادي الجدات حكايات البركة.

وعندما يميل النهار نحو المغيب، كان الشاطئ ينادي مخلوقاته. شط السلام لم يكن مجرد اسم، بل ملاذًا حقيقيًا. كانت مياهه الضحلة مرتعًا آمنًا للسلاحف البحرية التي تقطع آلاف الأميال لتضع بيضها في رماله الدافئة، مؤتمنةً إياه على مستقبل صغارها. وعلى مد البصر، كانت أسراب طيور الفلامينغو الوردية تقف برشاقة كأنها زهور نادرة نبتت في الماء، فتخلق لوحة وردية تخطف الأنفاس على خلفية الغروب البرتقالي.

كان البحر يمنح رزقه بسخاء. يصطاد الصيادون الحبار اللامع والتريليا الحمراء، ويعودون عند المساء بأهازيج تعبق برائحة الملح والفخر وكانت الشمس تغطس ببطءٍ في الأفق، تصبغ السماء بلون الحناء، وتلقي بآخر خيوطها الذهبية على وجه العروس النائمة. كانت تكابس تحلم بصباحٍ آخر لا يختلف عن أمسه: صباحٍ مليءٍ بالخضرة والزرقة ورائحة الحياء.

لكنها لم تكن تعلم أن أحلامها على وشك أن تتحول إلى كوابيس من نارٍ ورماد.

الفصل الثاني: وصول الغريب والصفقة

انتهى حلم تكابس الهادئ على وقع ضجيج لم تعرفه من قبل. لم يكن صوت الرعد، ولا هدير البحر الغاضب. بل ضجيجًا معدنيًا، باردًا، يمزق سكون الفجر. استيقظت العروس مذعورة، ورأت عند أطراف واحتها، حيث يلتقي الشاطئ بالبر، كيانًا غريبًا يشق الأرض. لم يكن رجلاً، بل كان وحشًا من حديد وإسمنت، ينمو بسرعة مرعبة، وأذرعه من المداخن الرمادية ترتفع نحو السماء الزرقاء الصافية، كأصابع تتحدى الخالق.

وصل "العريس" دون استئذان. لم يأتِ بخطبة رقيقة أو وعود بالحب، بل أتى بجرافاته التي تلتهم النخيل، وشاحناته التي تدوس على رمال الشاطئ الذهبية حيث كانت السلاحف تضع بيضها بأمان. كان صوته عالياً، يطغى على حفيف سعف النخيل، ورائحته الكيميائية الحادة بدأت تزاحم عطر الحناء والياسمين.

وفي قلب هذا المشهد الصادم، وقفت العروس تشاهد في صمت ورعب، ورأت والدها "الأب" يقف جنبًا إلى جنب مع هذا الغريب. لم تكن هناك حفلة زفاف لا زغاريد كانت ولا موسيقى، بل كانت هناك صفقة تُعقد فوق أرضها الممزقة. رأت الأب يصافح يدًا غير مرئية، يبتسم ابتسامة غريبة بينما كانت أوراق "عقد الزواج" تُوقّع في مكاتب بعيدة. كانت تلك الأوراق سندات ملكية لأرضها، وعقودًا تبيع هواءها ومياهها مقابل حفنة من المال ووعود بالرخاء.

لم يسألها أحد عن رأيها. لم ينظر"الأب" إلى عينيها اللتين امتلأتا بالدموع والارتباك. كان مشغولاً بالتباهي أمام "الأخوات" الأخريات بالثروة التي سيجلبها هذا "الزوج" القوي.

شعرت العروس بالخيانة. لم يكن هذا زواجًا، بل كان بيعًا. لقد سُلّمت مفاتيح جنتها إلى وحش لا قلب له، بمباركة والدها الذي أقسم يومًا على حمايتها. نظرت إلى واحتها التي بدأت تفقد خضرتها، وإلى بحرها الذي بدأ يفقد صفاءه، وأدركت أن الهدوء قد مات. كانت هذه هي الليلة الأولى من حياتها الجديدة، ليلة طويلة ومظلمة في فراش زوج لم تختره، زوج جاء ليأخذ كل شيء، دون أن يعطي شيئًا سوى الألم.

كانت تكابس، العروس الجميلة، قد زُفّت للتو إلى الجحيم.

في غرفةٍ تطلّ على الواحة، جلست تكابس أمام والدها، "الأب" (النظام/الدولة)، يرتدي ثوبًا رسميًا أثقل من ضميره. كانت عيناها، اللتان تحملان زرقة البحر وخضرة الواحة، تنطقان بالرجاء والخوف.

تكابس:

- "يا أبي... يا من أقسم أن يكون السند، بأيّ ميزانٍ وزنتَ روحي؟

وبأيّ ثمنٍ بعتَ قداسة المكان؟ لماذا هذا الغريب؟
ألم تكن حقولي كافيةً لتعطير مجدك؟
ألم يكفِكِ أنني كنتُ نعمةً لا صفقة، وحياةً لا بندًا في عقد؟"

الأب:
- "يا ابنتي، الجمال وحده لا يُقيم دولة. هناك عائلة كبرى، ومسؤولية أثقل من الحلم. زرقة عينيكِ لا تُشبع الجوع، وخضرة الواحة لا تُضيء مدنًا غرقت في العتمة.
نحن لا نملك رفاهية العاطفة... نحن نتعامل مع الضرورة."

تكابس :
- "لكنني كنتُ أُطعمهم من نخلي ورماني، وأرويهم من مائي، وبحري كان كريمًا بلا شروط أنا جنة، يا أبي...
وهل تحتاج الجنة إلى غريبٍ من حديد ليُعلّمها كيف تمنح الرزق؟"

الأب :
"هذا ليس زواجًا عادي، يا تكابس، بل عقدُ عصرٍ جديد. العريس يملك ما لا نملك. قوة، مال، نفوذ... سيحوّل خيراتكِ إلى أرقامٍ تُحسب، ومكانةٍ تُخشى.

هكذا تُبنى الدول... لا بالبركة، بل بالمعادلات ولا بالعواطف بل بالتنمية والتطوير."

تكابس:

- "سمعتُ عنه قبل أن أراه... قاسٍ، ملوِّث، يأخذ الروح ولا يعطي إلا الرماد.

رائحته تخنق الهواء، وقلبه من حديد لا يعرف الرحمة.

هل نُبادل جوهر الحياة بوهم الثراء؟ ونسمّي ذلك ازدهارًا؟"

الأب:

- "كلُّ مجدٍ له ثمن، يا تكابس.

نعم، سيكون هناك دخان. لكن الدخان يزول، أما التنمية فتبقى.

أنتِ الأقوى، ولهذا اخترناكِ.

كوني القاطرة... واتركي للآخرين دفء العربة."

تكابس:

-"وأين حقي؟

أين وعدك بالحماية؟

هل صارت الابنةُ مجرّد وسيلة،

لا تملك حتى حق الاعتراض؟"

الأب:

- "حقكِ أن تُضحّي.

الاختيار ترفٌ لا يُمنح في زمن البناء.

لقد قررتُ... ولا رجعة في القرار. أنا والدك وعليك إطاعتي.

الأوطان لا تُبنى بدموع العرائس، بل بصلابة من يُضحّون بهنّ."

تمرّ الريح على النخيل كأنها تنهيدة قديمة. تشعر تكابس أن الأرض تنكمش تحت قدميها. لم يكن صمتها قبولًا، بل وعيًا قاسيًا بالعجز أمام سلطة الأب الذي باعها باسم الضرورة الكبرى.

الفصل الثالث: الاغتصاب البطيء

لم يكن زواجًا، بل سجنًا ببواباتٍ من دخان. بعد أن أُغلقت الأبواب على العروس، وبدأت الحياة المشؤومة مع زوجها الحديدي، لم يعد هناك طريقٌ للعودة. تحوّل الوعد بالرخاء إلى كابوسٍ طويل، وبدأت تكابس تدفع ثمن الصفقة لا بمالها، بل بجمالها وصحتها وروحها. كان العنف زحفًا بطيئًا، همسًا خبيثًا تحوّل مع الزمن إلى صرخة مكتومة تمزّق نسيج الحياة يومًا بعد يوم حتى صارت الجنة وعدًا منسيًا في ذاكرة الريح. لم يكن العنف صاعقًا كعاصفة، بل كان كالسمّ الذي يسري ببطءٍ في العروق.

بدأ الأمر كبقعة حبرٍ على ثوب الزفاف الأبيض، ثم اتّسعت لتغطي الجسد كله. كان أول ما سُرق من تكابس هو نقاء الهواء، فلم يعد النسيم القادم من البحر يحمل رائحة اليود والملح، بل صار ثقيلًا، لزجًا، مفعمًا بغبار الفوسفوجيبس الذي يتساقط كثلجٍ أسود على الواحة. هذا الثلج لا يذوب، بل يستقرّ على سعف النخيل، يخنق مسامّه، ويحجب عنه نور الشمس سرّ الحياة الأول. النخلة، التي كانت رمز الصمود والشموخ، بدأت تنحني، أوراقها تفقد بريقها الزمردي لتتحول إلى رمادٍ رماديٍّ كأنها ترتدي كفنًا من الكلس. كان الهواء نفسه يئنّ، والعروس تشعر أن قلبها صار مصنعًا آخر يضخ الدخان بدل الدم.

ثم جاء دور البحر. لم يكتفِ الزوج بتسميم السماء، بل مدّ أذرعه الإسمنتية ليطعن قلب الخليج مباشرة. في كل مساء، كانت الأنابيب الضخمة تتقيّأ حمولتها من السوائل الكيميائية الحارقة، ماءً مريضًا يحمل بقايا الكبريت والفوسفات. لم يعد البحر أزرق، بل اكتسى لون الكدمات القديمة، بنيًا مصفرًا عند الشاطئ، كأن العروس تنزف من خاصرتها.

لم تعد تكابس تسمع أغنية الأمواج، بل أنين البحر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. السلاحف التي كانت تعود لتضع بيضها في رمال شطّ السلام، وجدت الشاطئ مغطى بالرغوة السامة، فماتت قبل أن تلد، وكأنها أعلنت الحداد على المكان الذي نُزع منه السلام اسمه ومعناه.

أما الرمان، فاكهة تكابس المدللة، فقد صار شاهدًا على المأساة. كانت حباته الحمراء الصغيرة، التي كانت تنفجر حلاوةً، قد شحبت ويبست، تحمل في طعمها مرارة الموت. لم تعد صالحة للأكل، بل غدت رمزًا للخصوبة المفقودة. كانت العروس تنظر إلى ثمارها المريضة وتدرك أن السمّ لم يعد في الهواء والماء فقط، بل تسلّل إلى عمقها، إلى رحم الأرض نفسها. اختفت أسراب الفلامينغو التي كانت تلوّن الغروب ورديًا، وغاب صوت الصيادين الذين كانت أهازيجهم تعانق الموج، وحلّ محلّ كل ذلك صمتٌ ثقيل لا يقطعه إلا هدير المصنع، نشيدٌ جنائزيّ يعزف على مدار الساعة.

هكذا، وببطءٍ قاتل، تمزّق الثوب الأخضر للعروس. لم يكن الأمر تلوثًا فحسب، بل اغتيالًا للروح وتحويلًا للجنة إلى مقبرةٍ من رمادٍ ومداخن.

لم تستطع العروس أن تصمت إلى الأبد. بعد سنواتٍ من الصبر المكسور، قررت أن تذهب إلى والدها إلى الأب الذي باعها لعل في قلبه بقيّة حنانٍ تستيقظ. دخلت عليه. لم تكن تبكي، فقد جفّت الدموع، لكن جسدها كله كان يصرخ. لم تعد ترتدي ثوبها الأخضر الزاهي، بل لونًا رماديًا من الغبار، كأنها تمشي مغطّاة برمادها هي.

قالت بصوتٍ مبحوحٍ متهدّج: "انظر إليّ يا أبي، انظر إلى ما فعل بي هذا الزوج!" مدّت يدها التي كانت تفوح بعطر الحناء، لتكشف عن كدماتٍ على جسدها، عرضت عليه صور الواحة التي تحوّلت إلى هياكل من نخيلٍ ميت، وزجاجةً صغيرة من ماء البحر صار لونها كصديد الجرح.

قالت بحرقة: "هذا هو ثمن الصفقة يا أبي! هذا هو الرخاء الذي وعدتني به! لقد أخذ مني كل شيء، ولم يترك سوى السعال والألم. ألا يكفيك ما أخذ؟ ألا يكفيك أنني أصبحت أتنفس الموت؟"

لكن الأب لم ينظر إليها كابنة، بل كصفقةٍ اقتصادية خاسرة. قال ببرودٍ يشبه الحسابات: "اهدئي يا ابنتي. هذه مبالغات عاطفية. كل زواجٍ فيه مشاكل. هذه الكدمات هي ثمن التقدم. هل نسيتِ كم من العملة الصعبة يجلب لنا هذا الزوج؟ وهل نسيتِ أن الأخوات يعتمدن على هذا المال؟"

صاحت تكابس: "وهل حياتي وحياة أبنائي لا تساوي شيئًا أمام أرقامكم؟"

أجابها بحدة: "حياتك جزء من حياة العائلة الكبرى! واجبك الصبر والتضحية. هذا الزوج شريان الاقتصاد، ولا يمكننا التضحية باستقرار العائلة من أجل بعض المشاكل البيئية التي يمكن حلها لاحقًا. عودي إلى بيتك وتحمّلي، هذا واجبك تجاه الوطن."

خرجت تكابس منه لا تحمل سوى صمتٍ يشبه اليتم. لم تعد ترى فيه أبًا، بل سلطةً بلا قلب.

الفصل الرابع: انتفاضة العروس

لقد واصلت العروس استنجاد والدها لسنوات طويلة. لم تكن شكواها في المشهد السابق هي الأخيرة، بل كانت حلقة في سلسلة لا تنتهي من النداءات التي كانت تُقابل بالصمت أو التبرير. تحملت تكابس الألم والمعاناة والتضحية، ليس ضعفًا، بل إيمانًا منها بأن التضحية هي جزء من الحب، وأن الصبر سيجعل الأب يرى الحقيقة في النهاية.

لكن الظلم، كالمادة الكيميائية، لا يتبخر مع الزمن، بل يتراكم. كل عام يمر، وكل أنبوب يصب سمومه في البحر، وكل طفل يسعل، كان يضيف طبقة جديدة من القسوة على روح العروس. تحول صبرها من فضيلة إلى وقود. لقد كانت تضحي بنفسها ليعيش الآخرون، لكنها اكتشفت أن تضحيتها لم تجلب الرخاء لأخواتها، بل جلبت لهن الصمت المريح على حساب دمائها.

في أعماق الواحة المريضة، بدأ الغضب ينمو شيئًا فشيئًا. لم يعد غضبًا عاطفيًا، بل تحول إلى حقيقة وجودية. لقد أدرك أبناؤها أن بقاءهم مرتبط بزوال هذا الظلم الذي كان ينمو في صدورهم كما تنمو الأورام في أجسادهم. وعندما يصل الظلم إلى ذروته، فإنه لا يكتفي بالقتل، بل يولد الثورة.

كان أبناء تكابس يكبرون في ظل هذا الكابوس، جيلاً نشأ على التناقض القاسي، الفقر في ظل الثروة، والاختناق تحت شعارات التنمية. كان المصنع، ذلك الزوج الحديدي، يضخ المليارات في خزائن الأب، لكنه لم يترك لأبناء العروس سوى

الفتات. نعم، وظّف بعضًا من أهلها، لكنه وظّفهم كأدوات قابلة للاستهلاك، يمنحهم أجورًا زهيدة مقابل أن يتنفسوا الموت، بينما يربح المليارات من على جثثهم الرمزية.

تحولت حياتهم إلى بندٍ في ميزانية التشغيل، وتحوّلت أجسادهم إلى "تكلفة خارجية" يمكن التغاضي عنها أمام بريق أرقام النمو الكاذب. كانت معاناتهم يومية، ملموسة، حسيّة، تجسيدًا لما يمكن تسميته بالسمّ المقبول؛ السعال لم يعد عرضًا عابرًا بل نغمة ثابتة في موسيقى الحياة، والأورام السرطانية تنمو كأشجارٍ خبيثةٍ في أجسادهم، كأن المصنع يزرع موته في لحمهم ودمهم.

الأطفال يفتحون أعينهم على سماء رمادية ويحلمون بوطنٍ سمعوا عنه في حكايات الجدات، وطنٍ فيه البحر أزرق والهواء نقيّ، لكنهم يعيشون ويموتون ببطء، وكأن اقتصاد المصنع أجلّ من أنفاسهم. أدركوا أنهم ليسوا غاية، بل وسيلة في آلة الإنتاج، وأن كرامتهم وحقهم في الحياة اختُزلا إلى رقم في معادلة الربح والخسارة. هذا القهر، هذا الشعور بأن وجودهم أقلّ قيمةً من الأرباح، هو ما زرع فيهم بذور الانفجار.

لم تكن القشة التي قصمت ظهر الصبر حدثًا اقتصاديًا عابرًا، بل لحظة موتٍ جماعيٍّ في قلب العجز، صرخة وجودٍ خرجت من صدر العروس وأبنائها معًا. في ليلةٍ خانقةٍ من شتاءٍ رمادي، اجتمعت المأساة في مشهدٍ واحدٍ يختصر كل وجع تكابس. تضاعفت حالات الاختناق بين الأطفال، وملأت أصوات السعال شوارع

المدينة كأجراس إنذار لا يسمعها أحد. هرعت الأمهات يحملن صغارهن، الذين لا ذنب لهم سوى أنهم وُلدوا في هذه الأرض المسمومة، إلى المستشفى الوحيد في الجهة، يلهثن بين الدخان والبرد، بحثًا عن هواءٍ لم يعد موجودًا.

لم يكن المستشفى مغلقًا، لكنه كان فارغًا من الحياة: لا أوكسجين، لا أجهزة تنفّس، لا شيء سوى عيونٍ عاجزةٍ وأطباءٍ يمدّون أيديهم إلى العدم. وكانت المفارقة قاسية تكابس، التي كانت يومًا تمنح الأرض أنفاسها من واحات النخيل، صارت اليوم تختنق مع أبنائها، غير قادرةٍ على أن تعطيهم نفسًا واحدًا من الحياة. كانت الأنفاس تنقطع ببطء، والأمّهات يتهامسن بالدعاء، والعروس في مكانٍ ما من روحها تصرخ معهم، تختنق معهم، وكأن صدرها هو الذي انقبض من الألم.

وفي الخارج، كان البحر شاهدًا على النهاية. البحر الذي كان مرآة العروس، زينتها وسرّها الأزرق، قد تحوّل إلى هاويةٍ سوداء. لم يعد أحدٌ يسبح فيه أو يصطاد منه. صار مقبرةً؛ مياهه ملوثة إلى حدّ الموت، وأسماكه هزيلةٌ أو نافقة، وطحالبه مسوّدة كأنها شعر العروس بعد الحزن الطويل.

كان الأبناء ينظرون إلى البحر كما ينظر الطفل إلى أمّه الغريبة التي لم تعد تعرفه. لم يعد البحر مصدر رزقٍ، بل مرآةً للعجز، تمامًا كما لم تعد الواحة مصدر حياة. التربة، تلك التي كانت في حضنها تُزرع الحناء والنعناع والرمان، تحوّلت إلى جلدٍ متصدّعٍ لا ينبت سوى الغبار، عاقرًا كرحمٍ أنهكه السمّ.

كانت العروس تفقد خيطًا من جمالها القديم. ومع ذلك، بقيت روحها تقاوم، تتجمع في صدر الأبناء الذين شاهدوا أمهاتهم وهنّ يختنقن بالعجز قبل الدخان.

استمرّ المصنع في ضخّ سمومه كوحشٍ لا يشبع، يعيث فسادًا في الأرض والجو والبحر دون اكتراثٍ بالعروس المسكينة أو أبنائها الذين يتساقطون واحدًا تلو الآخر. كان يزفر دخانه كأنّه يتفاخر بخطيئته، ويصبّ نفاياته في البحر كما لو أنّه يسقي موتًا مقدّسًا. لم يكن مجرد مصنع، بل إلهٌ رأسماليٌّ أعمى، لا يرى في الأرض إلا مادة، وفي الهواء إلا وقودًا، وفي الإنسان إلا رقمًا يُضاف إلى خانة الإنتاج أو يُشطب منها. كانت تكابس، العروس، تشعر بأن جسدها يُغتصب كلّ يومٍ على مرأى من الجميع، وأن دمها الذي كان ماءً عذبًا في واحات النخيل صار سائلاً كيميائيًا يسري في عروق الأرض الميتة.

كانت تتألم، تصرخ، لكن لا أحد يسمع سوى صدى المداخن. لم يعد أحد يفرّق بين دخانها وأنينها، بين بخارها وغصّتها. حتى السماء بدأت تشيخ فوقها، تغطّي زرقتها بسحابة رمادية دائمة، كأنّها حدادٌ طويل على مدينةٍ كانت يوماً جنة.

كان المصنع يواصل عمله بانتظامٍ شيطانيٍّ مطمئنٍّ إلى سلطته، كأنّه يقول في صمته المعدنيّ: "ستموتون جميعًا، وسأبقى." في كلّ دقيقةٍ يربح أموالًا، وفي كلّ دقيقةٍ أخرى يخسر روحًا، ولا يرى في المفارقة أي مأساة. كان يواصل الضخّ رغم أنوفهم، في رسالةٍ باردةٍ فاضحةٍ كُتبت بلغة الأرقام لا الرحمة: أن أرواحكم أقلّ قيمةً من أرباحي، وأنّ موتكم جزءٌ من خطةٍ إنتاجيةٍ ناجحة. كانت هذه هي ذروة الإذلال،

لحظة الوعي المسموم التي فهم فيها الأبناء أنّ آلة المال لا تتوقّف لأن أحدهم مات، بل لأنها تتغذّى على موته.

ثم جاءت الفاجعة الكبرى حين ظهر الأب، على الشاشات ليقول ببرود: «لا دليل علمي على وجود خطرٍ صحيٍّ مباشر، والتهويل يضرّ بالاستثمار.» كان صوته باردًا كقلبه، وكأنّه يتحدث عن كائناتٍ غير مرئيةٍ لا تحمل أسماءً ولا وجوهًا. عندها أدرك الأبناء أن موتهم لم يكن مصادفة، بل سياسة، وأن أنين أطفالهم يُختزل في تقاريرٍ باردةٍ تحمل ختم «وزارة التنمية». كانت تلك لحظة الإذلال المضاعف حين تُكذَّب الضحية وهي تموت، وأن يُقال للأمّ الثكلى إنّ طفلها لم يمت بما يكفي من الأدلة.

حينها انكسر في العروس شيءٌ لا يُرمّم. أدركت أن قيمتها في عيونهم لا تتجاوز سعر الطنّ من الفوسفات، وأنّ قلبها الأخضر، الذي كان يمنح الأوكسجين، صار يُقاس بمردوديته الاقتصادية. لم تعد المأساة بيئية فحسب، بل وجودية؛ فالعروس التي كانت رمز الحياة تحوّلت إلى سلعة والأم التي كانت تمنح التنفّس صارت تختنق لتملأ خزائن غيرها.

وهناك، في تلك اللحظة السوداء، أدرك الأبناء أنهم يعيشون في عالمٍ فقد توازنه الأخلاقيّ، وأنّ خلاصهم لن يأتي من السماء، بل من الأرض التي تئنّ تحت أقدامهم. كانت الواحة تلفظ أنفاسها الأخيرة، والمصنع يواصل الضخّ كمن يحتفل بجنازتها.

وفي عمق العتمة، بدأت الشرارة الأولى تشتعل لم تكن ثورة غاضبة فقط، بل ردّة فعلٍ فطريةٍ للحياة حين تُهان.

أدرك الأبناء أن الصبر انتهى، وأن الصمت صار خيانةً للأمّ التي تحتضر. لم يعد أمامهم سوى خيارين: أن يموتوا ببطءٍ كما ماتت الواحة، أو أن يثوروا كالماء حين يُحبس طويلاً. لقد وصل السم إلى العظم، وصار الموت الذي يواجهونه ليس قَدَرًا طبيعيًا، بل جريمة مقدّسة باسم التنمية. وهكذا، تحوّل الغضب إلى فعل، والفعل إلى ثورة خرج الأبناء إلى الشوارع بصدورٍ مليئةٍ بالغضب لا بالهواء يصرخون:" نحن لسنا تكلفة! نحن الغاية! كرامتنا أغلى من صادراتكم."، واجههم «الزوج» الحديدي و«الأب» المتواطئ بالقمع والدخان، مردّدين الشعار المبتذل: "الوطن فوق الجميع!" لكن الأبناء أجابوا:

"أيّ وطنٍ هذا الذي يحيا على جثث أبنائه؟ أي وطن هذا الذي تموت فيه الطفولة بالربو؟"

كان هذا التمرد على منطق الآلة التي تبتلع الإنسان ثم تسميه رقمًا، وعلى الفلسفة التي تقيس الحياة بمؤشرات الربح والخسارة. لقد فهموا أن الوطنية التي يُطلب منهم الإيمان بها ليست حبًّا للوطن، بل خضوعًا للسلطة. وأن الصمت موتٌ أطول، وأن الثورة هي اللغة الوحيدة التي يتقنها الأحياء حين يُحاصرهم الفناء. لقد كانت تكابس في تلك اللحظة تلد نفسها من جديد عبر أبنائها، تراهم يمتدّون منها كما تمتدّ الجذور من جرح الشجرة، وتفهم أن الثورة ليست خروجًا على الوطن، بل

عودةٌ إليه، إلى صورته الأولى: وطنٌ يُحبّ الإنسان فيه لأنه إنسان، لا لأنه مورد إنتاج.

الخاتمة:

مرّت السنين، والعروس لم تعد تلك الفتاة البهيّة التي كانت تضحك للبحر وتغنّي للنخيل، لكنها لم تنكسر. آثار التلوث محفورةٌ في جسدها كوشومٍ من وجعٍ قديم، غير أنّ روحها غدت أصلب من الحديد وأعمق من الجرح. أدركت أن صبرها لم يكن ضعفًا، بل احتراقًا مقدّسًا أنضج في رحمها بذرة الثورة. واليوم، يقف أبناؤها صفًا واحدًا في وجه الطغيان، عيونهم تشعّ بعزمٍ ورثوه عنها، وصدورهم تتنفس الغضب كما تتنفس الواحة الغبار. يواجهون الزوج الحديديّ الذي يأبى الرحيل، ويقفون في وجه الأب الذي ما زال يعشق أرباحه أكثر من حياة ابنته، لكن الريح تغيّرت، وصوت الأرض عاد أقوى من هدير المداخن.

في قلب الواحة الجريحة نبتت بذرة لا تموت، خرجت من دموع العروس، ومن سعال أبنائها، ومن صمت البحر الذي صار قبرًا للأسماك. تلك البذرة وعدٌ بالحياة، وميلادٌ جديدٌ من رحم الألم. تكابس لن تركع. ستواصل النضال دفاعًا عن حقّها في الوجود، عن هوائها النقيّ، وبحرها الأزرق، وواحتها الخضراء. فالحرية ليست شعارًا يُرفع في الميادين، بل نَفَسٌ نقيّ يملأ الصدر دون إذن، وحقٌّ أن تعيش الأرض بلا قيودٍ ولا سموم.

العروس ستعود إلى عرشها، حرّةً، عذراءَ الروح كما خلقها الله أوّل مرّة؛ لا تُباع، لا تُشترى، بل تُعشق وتُصان. وسيبقى اسمها نشيدًا يتردّد مع كل فجر جديد:

تكابس لن تركع.

كُلُّ قِصَّةٍ تَنْتَهِي حَيْثُ يَبْدَأُ الْوَاقِعُ.

هَذِهِ لَيْسَتْ نِهَايَةً...
بَلْ بِدايَةُ الْسُّؤَالِ.

مَاذَا سَتَفْعَلُ،

إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْعَرُوسَ؟

وَإِذَا كَانَ الْوَطَنُ هُوَ الْأَبُ؟

وَإِذَا كَانَتِ الْمُقَاوَمَةُ تُسَمَّى خِيَانَةً؟

قاموس العروس

كلّ تعريف هو وَشْمٌ على جسد العروس... يُقرأ بين السطور

العروس:

كائنٌ يُباع مرّتين مرّة باسم "المصلحة"، ومرّة باسم "الوطن".

التنمية:

اسمٌ جميلٌ لعملية طويلة، يُطلَب فيها من الجسد أن يتأقلم مع ما لا يُطاق.

التضحية:

فضيلة تُمدح حين يؤدّيها الضعفاء، وتُنسى حين يُسألون عنها.

الوطن:

فكرةٌ واسعةٌ، تضيق أحيانًا حتّى لا تتّسع للهواء.

الحرية:

ألاّ تُباع العروس مرّة ثالثة.

الروح:

ما يبقى من العروس...

حين يُسرَق منها كلّ شيء سواه.

تعريفات لا تُقرأ... بل تُشَمّ: رائحة حناء ممزوجة برائحة دخان

شكر وامتنان

إلى كل روح رفضت الصمت، وإلى كل عين

رأت الجمال قبل أن يغطيه الدخان.

شكر خاص لكل من امن بأن الأماكن تتكلم،

وأن حكاياتها تستحق أن تروى.

ولك أيها القارئ، لأنك لم تكتف بالقراءة،

بل أصبحت شاهدا.

مازن جراي

نبذة عن الكتاب

بين العروس، والأب، والزوج الغريب، تتشكّل حكاية عن أرضٍ حقيقية تُروى بلسان الجسد. هنا، لا تكون العروس سوى صورةٍ رمزية، لمدينةٍ تُحبّ بصمت، وتُرهق باسم المصلحة. نصّ يقترب من الواقع دون أن يسمّيه، ويضعه في مرآة الرمز، لا لينكره، بل ليكشف ثقله وتعقيده.

عن الكاتب مازن جراي

كاتب تونسي، طالب جامعي من مواليد 2004.
مؤلف كتاب "رحلة الذات" ومشارك في الكتاب الجامع الدولي "عاصفة العودة". نشرت له مقالات ونصوص أدبية في عديد من المنصات والصحف العربية أبرزها العربي الجديد، منصة جوك، صحيفة المثقف، صحيفة القدس العربي.
تتّسم كتابته بنَفَسٍ فلسفيٍّ وتأمليّ، يمزج بين الحسّ الوجداني والبعد المقاوم.